

النّزعة العلمية العقلية في التّأصيل النّحوِي عند نحاة البصرة

أ.هـال خـير الدـين
المـركـز الجـامـعي - مـيلـة-

قامت الأحكام النحوية عند البصريين على أساس علمي متين، مثله القياس النحوـي؛ فسبغوا أحكامـهم بالطابـع العـقـلي القـائم عـلـى التـحلـيل والتـعلـيل، فـتـحدـثـوا عـن العـلـة النـحوـية وأـولـوها عـنـياتـهم الفـائـقة وبـخـاصـة العـلـل الأولـة التعليمـية، كما تـحدـثـوا عـنـ العـاـمـل وبنـوا لهـ فيـ التـحـوـ نـظـرـيـة قـامـتـ عـلـيـها كلـ القـوـاعـدـ، خـاصـةـ وـأـنـ المـنـطـقـةـ اللـغـويـ للـعـرـبـيـ فـيـ أـذـهـانـ العـرـبـ قدـ قـامـتـ عـلـيـأسـاسـ منـ العـلـاقـاتـ المنـطـقـةـ الـرـياـضـيـةـ الـتـيـ يـقـودـ بـعـضـهاـ إـلـىـ بـعـضـ حـيـثـ اـرـتـبـطـ التـعلـيلـ النـحوـيـ بـوـجـودـ الحـكـمـ النـحوـيـ وـغـرـضـهـ ضـبـطـ الـظـواـهـرـ بـقـوـاعـدـ الـعـلـمـ وـأـحـكـامـهـ، وـالـذـينـ توـسـعواـ فـيـ إـيـضـاحـ مـفـهـومـ التـعلـيلـ فـيـ التـحـوـ الـعـرـبـيـ بـيـتـواـ أـنـهـ (ـبـحـثـ عـنـ الأـسـبـابـ الـكـامـنـةـ وـرـاءـ حـصـولـ الـظـواـهـرـ الـلـغـويـ وـالـنـحوـيـ وـالـصـرـفـيـةـ يـوـافـقـ الـقـاـعـدـةـ وـلـاـ يـنـاقـصـهـاـ، فـيـسـوـغـهـاـ وـيـشـرـحـ بـوـاعـثـهـاـ، وـأـهـدـافـهـاـ، مـعـتمـداـ عـلـىـ النـصـوصـ الـلـغـويـةـ الـمـرـوـيـةـ عـنـ الـعـرـبـ)¹ وـقـدـ قـسـمـ الـنـحـاةـ الـعـلـلـ إـلـىـ ثـلـاثـةـ أـقـسـامـ: الـعـلـلـ الـأـولـىـ، وـسـمـاـهـاـ بـعـضـهـمـ الـعـلـلـ الـتـعـلـيمـيـةـ، وـالـعـلـلـ الـثـوـانـيـ وـسـمـاـهـاـ بـعـضـهـمـ الـعـلـلـ الـقـيـاسـيـةـ، وـالـعـلـلـ الـثـوـالـثـ، وـسـمـاـهـاـ بـعـضـهـمـ الـعـلـلـ الـجـدـلـيـةـ؛ كـماـ جـاءـ فـيـ إـيـضـاحـ: (ـوـعـلـلـ التـحـوـ بـعـدـ ذـلـكـ ثـلـاثـةـ أـضـرـبـ: عـلـلـ تـعـلـيمـيـةـ وـعـلـلـ قـيـاسـيـةـ، وـعـلـلـ جـدـلـيـةـ نـظـرـيـةـ؛ فـأـمـاـ الـعـلـلـ الـتـعـلـيمـيـةـ فـهيـ الـتـيـ يـتـوـصـلـ بـهـاـ إـلـىـ تـعـلـمـ كـلامـ الـعـرـبـ، لـأـنـاـ لـمـ نـسـمـعـ نـحـنـ وـلـاـ غـيـرـنـاـ كـلـامـهـاـ مـنـهـاـ لـفـظـاـ، وـإـنـماـ سـمـعـناـ بـعـضـاـ فـقـسـنـاـ عـلـيـهـ نـظـيرـهـ، وـمـثـالـ ذـلـكـ أـنـاـ لـمـاـ سـمـعـنـاـ: قـامـ زـيـدـ فـهـوـ قـائـمـ ... عـرـفـنـاـ

اسم الفاعل فقلنا: ذهب فهو ذاہب... وما أشبـه ذلك... فمن هذا النوع من العلل قولنا: إنَّ زـيداً قـائـمـ؟، فإنـ قـيلـ: بمـ نـصـبـتـ زـيدـ؟ فـقلـناـ: بـ إنـ لـأنـها تـنصـبـ الـاسـمـ وـتـرـفـعـ الـخـبرـ، لـأنـ كـذـلـكـ عـلـمـنـاهـ وـنـعـلـمـهـ... فـهـذـاـ وـمـاـ أـشـبـهـهـ مـنـ نـوـعـ التـعـلـيمـ، وـبـهـ ضـبـطـ كـلـامـ الـعـرـبـ. وـأـمـاـ الـعـلـلـ الـقـيـاسـيـةـ فـأـنـ يـقـالـ لـمـنـ قـالـ: نـصـبـتـ زـيدـ بـ إنـ: وـلـمـ وـجـبـ أـنـ تـنـصـبـ إـنـ الـاسـمـ؟ فـالـجـوابـ فـيـ ذـلـكـ أـنـ يـقـولـ: لـأنـهـ وـأـخـواـتـهـ ضـارـعـتـ الـفـعـلـ الـمـتـعـدـيـ إـلـىـ مـفـعـولـ، فـحـمـلـتـ عـلـيـهـ، فـأـعـمـلـتـ إـعـمـالـهـ لـمـاـ ضـارـعـتـهـ فـالـمـنـصـوبـ بـهـ مـشـبـهـ بـالـمـفـعـولـ لـفـظـاـ، وـالـمـرـفـوعـ مـشـبـهـ بـالـفـاعـلـ لـفـظـاـ، فـهـيـ تـشـبـهـ مـنـ الـأـفـعـالـ مـاـ قـدـمـ مـفـعـولـهـ عـلـىـ فـاعـلـهـ؛ نـحـوـ: ضـرـبـ أـخـاـهـ مـحـمـدـ... وـأـمـاـ الـعـلـةـ الـجـدـلـيـةـ الـنـظـرـيـةـ: فـكـلـ مـاـ يـعـتـلـ بـهـ فـيـ بـابـ إـنـ بـعـدـ هـذـاـ؛ مـثـلـ أـنـ يـقـالـ: فـمـنـ أـيـ جـهـةـ شـابـهـتـ هـذـهـ الـحـرـوفـ الـأـفـعـالـ؟ وـبـأـيـ الـأـفـعـالـ شـبـهـتـمـوـهـ؟...)² وـالـمـلـاحـظـ مـنـ قـوـلـ الزـاجـاجـيـ أـنـ الـعـلـلـ الـتـعـلـيمـيـةـ مـاـ هـيـ إـلـاـ قـرـائـنـ أوـ أـسـبـابـ مـبـاشـرـةـ، تـقـوـمـ بـتـقـسـيـمـ الـوـاقـعـ الـلـغـوـيـ وـتـكـوـنـ تـابـعـةـ لـهـ (وـهـيـ بـهـذـهـ الـخـصـائـصـ أـقـرـبـ مـاـ تـكـوـنـ إـلـىـ وـصـفـ الـظـواـهـرـ الـلـغـوـيـةـ وـالـقـوـاـدـ الـنـحـوـيـةـ؛ إـذـ يـتـمـ فـيـهـ تـحـدـيـدـ الـوـظـائـفـ الـنـحـوـيـةـ؛ أـيـ بـيـانـ الـعـلـاقـاتـ الـتـرـكـيـبـيـةـ بـيـنـ الصـيـغـ وـالـمـفـرـدـاتـ، حـينـ يـتـمـ تـرـكـيـبـاـ فـيـ جـمـلـ وـأـسـالـيـبـ، دـوـنـ مـحاـوـلـةـ لـفـرـضـ مـاـ يـخـالـفـ الـوـاقـعـ الـلـغـوـيـ؛ بلـهـ اـعـتـبـارـهـ أـسـاسـاـ وـاجـبـ الـمـرـاعـاـةـ وـالـاحـتـراـمـ)³ وـقـدـ سـمـيـتـ تـعـلـيمـيـةـ لـأـنـ الـغـرـضـ مـنـهـ الـاستـعـانـةـ بـهـ كـعـلـامـاتـ لـتـعـرـفـ الـقـاعـدـةـ الـنـحـوـيـةـ لـدـىـ الطـلـابـ؛ إـذـ إـنـهـ تـعـلـلـ لـنـاـ الـأـحـکـامـ الـإـعـرـابـيـةـ، كـرـفـعـ الـاسـمـ لـأـنـهـ مـبـتـداـأـ أوـ خـبـرـ أوـ فـاعـلـ أوـ نـائـبـ فـاعـلـ أوـ اـسـمـ كـانـ أوـ خـبـرـ إـنـ أوـ صـفـةـ لـاسـمـ مـرـفـوعـ أوـ توـكـيدـ لـاسـمـ مـرـفـوعـ أوـ بـدـلـ مـنـ اـسـمـ مـرـفـوعـ أوـ مـعـطـوـفـ عـلـىـ اـسـمـ مـرـفـوعـ. وـنـصـبـ الـاسـمـ؛ لـأـنـهـ مـفـعـولـ بـهـ أوـ حـالـ أوـ تـمـيـزـ أوـ مـفـعـولـ مـطـلـقـ أوـ مـفـعـولـ لـأـجلـهـ أوـ مـفـعـولـ مـعـهـ، أوـ صـفـةـ لـاسـمـ مـنـصـوبـ أوـ بـدـلـ مـنـ اـسـمـ مـنـصـوبـ أوـ توـكـيدـ لـهـ أوـ مـعـطـوـفـ عـلـيـهـ، أوـ

اسم للحرف المشبه بالفعل، أو خبر لكان. وجر الاسم لأنّه مضافٌ إليه أو مجرور بحرف الجر.

إنَّ ظاهرة التعليل في النحو العربي ضاربة الجذور، تعود إلى عهد عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي، فقد (تعاورها النحاة الذين جاؤوا بعده بمفهومها التعليمي البسيط الذي يراد منه معرفة كلام العرب، بمعرفة المرفوع والمنصوب والمجرور منه، لضبطه والاتساع به)⁴ واستمرت الحال على هذا المنوال حتى نضجت العلة النحوية عند الخليل بن أحمد الفراهيدي وكثُرت واتسَع نطاقها نتيجةً لنضج الحركة العلمية التي واكبت تطور البحث النحووي عند العرب، ولم ينتج ذلك عن تأثير النحاة بالآثار الأجنبية -كما يزعم بعضهم- لأنَّ العلوم الدينية والأدبية واللغوية والفكريّة قد نضجت عند العرب المسلمين في هذه المرحلة (فقد جمعت الأحاديث النبوية الشريفة، وصنفت حسب أبواب الفقه، وضُبطَ الفقه، ودُوّنتُ أحكامه على يد الأئمة الكبار وصنفت مفردات اللغة، ووضعت المعاجم العامة الشاملة)⁵ واستوى علم الكلام على سُوقه، وآتى أكُلُه (نتيجةً لما دار بين الفرق المختلفة من جدل طويل حول مسائل متعددة مما أدى إلى صبغ العقل العربي بالصبغة الجدلية ومرّته تمريناً واسعاً على دقة التعليل والمهارة في استبطاط المعاني ودقائقها. ولم يقتصر ذلك على مسائل العقيدة فحسب؛ بل وجَّه البحث اللغوي وجهات عديدة فيها نظر وبحث ومناقشة)⁶ هذه الأسباب مجتمعة أدت إلى اتساع أسلوب التعليل ونضجه في النحو العربي ونضج التعليل يدلُّ على اكمال أصول النحو وفروعه، فتجلى ذلك أثراً مدوّناً في كتاب سيبويه؛ لأنَّ التعليل الناضج يأتي بعد نضج البحث النحووي، وعلى الرغم من النضج الذي أصاب التعليل النحووي بقي مفهومه تعليمياً أي بقيت على النحو أوائل مرتبطة بالواقع اللغوي ومسوَّغة له؛ لأنَّها تعتمد أساليب العرب في كلامها وكثيراً ما اقتربت بالسماع لقولهم في نهاية التعليل (وهكذا سمعنا من العرب) فبدأ التعليل يأخذ على يد النحاة بعد نضجه -صفة المنهج، وأكملوا

ضرورته، وحثّوا على ملاحظته، ووسعوا نطاقه، وتركوا باب الاجتهاد مفتوحاً في استنباطه لمن جاء بعدهم، واتّسم تعليهم بدقة الفهم لأسرار اللغة مفردة ومركبة واعتمد على الركائز اللغوية بكثرة مثل (دفع اللبس، وإثارة الخفة والفار من التقل والتعميض، والخلاف، والتشابه، وغلبة الكثرة، وطبيعة الشيء، وحال المخاطب ومراد المتكلم، ومراعاة الأصل، والعدل والتوهم...)⁷ فكان قياسهم (فطرياً في متناول الكثيرين مستمدًا من فهم النص فهماً لا تكلّف فيه ولا صنعة)⁸ فلم يتّسم تعليهم بالتجريدية والفلسفية والمنطق، ولم يكن عقلياً متعباً.

ثم أَلْفَت كتب خاصة بالعلل نذكر منها كتاب الإيضاح في علل النحو للزجاجي (ت 311هـ) وقد جمع مؤلفه فيه العلل النحوية التي عرفت حتى عصره سواء ما اتصل منها بالحدود وأحكام الإعراب، أو ما اتصل منها بالفروض والظنوں الجدلية، وفي العصر الحديث تحدث الدكتور مازن المبارك عن العلة النحوية حديثاً رصيناً مفصلاً في كتابه النحو العربي، وذلك لما للعلة من أهمية بالغة في النحو العربي حيث ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالقياس النحووي الذي هو حمل غير المنقول على المنقول في الحكم لعلة جامعة؛ وذلك أنه لا قياس بلا علة؛ لذا بلغ الاهتمام بها غايتها خاصة في كتاب الخصائص لابن جني الذي نظر لها تنظيراً دقيقاً.

لقد تضافرت عدة أسباب أدت إلى نشوء التعليل في النحو العربي، والباحث في طبيعة تلك الأسباب يجد أنها تعليمية أو تكاد أن تكون تعليمية، مثل توسيع قواعد التوجيه وتقسيرها وتعليق حركات الإعراب (وكون العلة ركناً من أركان القياس ونضج الدرس النحووي واكتمال أصوله وفروعه في كتاب سيبويه)، ورغبتهم في تعميق فهم الظواهر اللغوية والنحوية وإنجاح عملية التعليم، كل ذلك دفعهم إلى التعليل، وهذه الأسباب مجتمعة تدلّ كلّها على أن نشأة التعليل ودوافعه كانت عربية إسلامية نتيجة للظروف المحيطة بالبحث النحووي عند العرب التي نشأ

وترعرع فيها، وما هيأته من استجابات دينية وعاطفية وعلمية وراء الفكرـة التي تعد السبب الأساس في نشأة التعـليل النـحوي، وسيـباً رئيسـاً من أسبـاب استمرارـه؛ وتطورـه دون أي تـأثير غير عـربـي⁹ وهذا يعني أنـ عـلـهمـ كانـتـ عـربـيـةـ الأـصـلـ وـالـنـشـأـةـ، استـقاـهاـ العـربـ منـ ذاتـ أـنـفـسـهـمـ وـطـبـيـعـةـ لـغـتـهـمـ وـلـمـ يـأـخـذـهـاـ عـنـ غـيـرـهـمـ مـنـ الـأـمـ؛ بلـ كـانـتـ وـلـيـدـةـ قـرـائـحـهـمـ.

وعـلـىـ الرـغـمـ مـنـ كـلـ هـذـاـ فـقـدـ أـبـىـ بـعـضـ الـبـاحـثـيـنـ إـلـاـ الـادـعـاءـ بـأـنـ مـبـداـ التـعـليلـ فـيـ النـحـوـ عـرـبـيـ مـأـخـوذـ عـنـ فـلـسـفـةـ الـيـونـانـيـةـ، أمـثـالـ جـورـجـيـ زـيـدانـ، وـالـدـكـتـورـ مـحـمـدـ عـيـدـ وـغـيـرـهـمـ. وـهـذـاـ مـجـانـبـ لـلـصـوـابـ لـأـنـ العـلـلـ مـذـ نـشـأـتـهـاـ فـيـ النـحـوـ عـرـبـيـ إـلـىـ أـنـ نـضـجـتـ عـلـىـ يـدـ الـخـلـيلـ وـتـجـلـتـ أـثـرـاـ مـدـوـنـاـ فـيـ كـتـابـ سـيـبـوـيـهـ، كـانـتـ عـلـلـ تـعـلـيمـيـةـ بـسـيـطـةـ، تـهـدـيـ إـلـىـ تـعـلـيمـ كـلـمـ الـعـربـ وـلـمـ تـجـاـزـ هـذـاـ مـفـهـومـ؛ وـلـذـكـ لـمـ تـكـنـ فـلـسـفـيـةـ؛ بلـ كـانـتـ نـابـعـةـ مـنـ ذاتـ أـنـفـسـ النـحـاءـ، وـمـرـتـبـةـ بـطـيـعـةـ لـغـتـهـمـ، وـهـيـ صـدـىـ لـلـحـرـكـةـ الـعـلـمـيـةـ الـتـيـ قـامـتـ عـنـهـمـ بـمـظـاهـرـهـاـ الـدـينـيـةـ وـالـأـدـبـيـةـ وـالـلـغـوـيـةـ وـالـفـكـرـيـةـ، وـلـمـ تـكـنـ فـيـ عـهـدـ الـخـلـيلـ بـنـ أـحـمـدـ قـدـ تـرـجـمـتـ الـكـتـبـ الـفـلـسـفـيـةـ الـمـنـطـقـيـةـ؛ بلـ دـخـلـ الـمـنـطـقـ الـيـونـانـيـ إـلـىـ الـبـيـئـةـ الـعـرـبـيـةـ فـيـ الـقـرـنـ الـثـالـثـ الـهـجـرـيـ، وـلـمـ يـؤـثـرـ فـيـ التـقـافـةـ الـعـرـبـيـةـ وـلـمـ يـسـتـحـكـ بـهـاـ إـلـاـ فـيـ نـهـاـيـةـ الـقـرـنـ الـهـجـرـيـ الـثـالـثـ، فـيـ حـينـ عـرـفـ ظـواـهـرـ التـعـليلـ فـيـ النـحـوـ عـرـبـيـ كـمـاـ مـرـ سـابـقاـ. عـنـ عـبـدـ اللهـ بـنـ أـبـيـ إـسـحـاقـ الـحـضـرـمـيـ، وـأـخـذـ يـنـموـ بـقـوـتـهـ الـذـاتـيـةـ، وـلـيـسـ بـتـأـثـيرـ الـفـلـسـفـةـ الـيـونـانـيـةـ، فـمـنـ أـيـنـ لـهـمـ أـنـ يـطـلـعـواـ عـلـيـهـاـ قـبـلـ أـنـ تـنـتـرـجـ؟ أـضـفـ إـلـىـ ذـلـكـ أـنـ التـعـليلـ أـصـلـاـ مـأـخـوذـ عـنـ الـأـعـرـابـ، وـهـنـاكـ أـدـلـةـ تـؤـكـدـ ذـلـكـ، عـلـىـ الرـغـمـ مـنـ أـنـ الـعـربـ لـمـ يـبـوـحـواـ إـلـاـ بـالـقـلـيلـ مـنـهـ، مـنـ ذـلـكـ مـاـ اـسـتـدـلـ بـهـ اـبـنـ جـنـيـ نـقـلاـ عـنـ سـيـبـوـيـهـ: (وـقـالـ سـيـبـوـيـهـ حـدـثـاـ مـنـ نـقـ بـهـ أـنـبـعـضـ الـعـربـ قـيـلـ لـهـ: أـمـاـ بـمـكـانـ كـذـاـ وـكـذـاـ وـجـذـ؟ فـقـالـ: بـلـىـ وـجـاذـ أـرـادـ أـعـرـفـ بـهـاـ وـجـاذـ، وـقـالـ أـيـضـاـ: وـسـمـعـنـاـ بـعـضـهـمـ يـدـعـوـ عـلـىـ غـنـمـ رـجـلـ، فـقـالـ: اللـهـمـ ضـبـعـاـ وـذـئـبـاـ، فـقـلـنـاـ لـهـ: مـاـ أـرـدـتـ؟ فـقـالـ: اللـهـمـ اـجـمـعـ فـيـهـاـ ضـبـعـاـ وـذـئـبـاـ، كـلـهـمـ يـفـسـرـ مـاـ يـنـوـيـ، ثـمـ عـقـبـ

على ذلك بقوله: فهذا تصريح منهم بما ندعـيه عليهم وننسب إليـهم)¹⁰ ثم عـلـقـ ابن جـني عـلـى هـذـا وأـمـثالـه من الظـواهرـ المـعـلـلةـ بـقولـهـ: (أـفـتـرـاكـ تـرـيدـ منـ أـبـيـ عـمـروـ وـطـبـقـتـهـ وـقـدـ نـظـرـواـ وـتـرـبـيـواـ، وـقـاسـوـاـ وـتـصـرـفـواـ، أـنـ يـسـمـعـواـ أـعـرـابـيـاـ جـافـيـاـ غـفـلاـ، يـعـلـلـ هـذـاـ المـوـضـعـ بـهـذـهـ الـعـلـةـ... فـلـاـ يـهـتـاجـواـ هـمـ مـثـلـهـ، وـلـاـ يـسـلـكـواـ فـيـهـ طـرـيقـتـهـ، فـيـقـولـواـ فـعـلـوـاـ كـذـاـ، وـصـنـعـوـاـ كـذـاـ، وـقـدـ شـرـعـ لـهـمـ الـعـرـبـيـ ذلكـ، وـوـقـفـهـمـ عـلـىـ سـمـتـهـ وـأـمـتـهـ)¹¹ كلـ هـذـاـ وـأـشـبـاهـهـ يـدـلـ عـلـىـ أـنـهـ وـقـرـ فـيـ نـفـوسـ النـحـاءـ أـنـ الـعـرـبـ الـفـصـحـاءـ كـانـوـاـ يـدـرـكـونـ عـلـلـ ماـ يـقـولـونـ، وـأـنـهـ كـانـوـاـ يـعـلـلـونـ بـعـضـ ماـ يـقـولـونـ، وـمـنـ ثـمـ جـعـلـ النـحـاءـ نـصـ الـعـرـبـيـ عـلـىـ الـعـلـةـ، أـوـ إـيمـاءـهـ إـلـيـهـاـ مـسـلـكـاـ مـنـ مـسـالـكـ الـعـلـةـ، وـيـوـضـحـ مـوـقـفـ النـحـاءـ مـنـ هـذـاـ قـوـلـ سـبـيـوـيـهـ: (وـلـيـسـ شـيـءـ يـضـطـرـوـنـ إـلـيـهـ إـلـاـ وـهـمـ يـحـاـلـوـنـ بـهـ وـجـهـاـ)¹². ولـعـلـ سـبـيـوـيـهـ فـيـ رـأـيـهـ هـذـاـ قـدـ تـابـعـ رـأـيـ أـسـتـاذـهـ الـخـلـيلـ بـنـ أـحـمـدـ الـذـيـ سـئـلـ ذـاتـ مـرـةـ: (أـعـنـ الـعـرـبـ أـخـذـتـ هـذـهـ الـعـلـلـ أـمـ اـخـرـعـتـهـاـ مـنـ نـفـسـكـ؟ فـأـجـابـ: (إـنـ الـعـرـبـ نـطـقـتـ عـلـىـ سـجـيـتـهـاـ وـطـبـاعـهـاـ، وـعـرـفـتـ مـوـاقـعـ كـلـامـهـاـ وـقـامـتـ فـيـ عـقـولـهـاـ عـلـلـهـ، وـإـنـ لـمـ يـُقـلـ ذـلـكـ عـنـهـاـ)¹³ فـهـذـهـ الـعـلـلـ عـلـلـ بـهـاـ النـحـاءـ النـحـوـ الـعـرـبـيـ بـعـيـدةـ كـلـ بـعـدـ عـنـ التـعـلـيلـ الـفـلـسـفـيـ؛ لـأـنـهـ تـرـدـ عـلـىـ كـلـامـ الـعـرـبـ، تـقـبـلـهـاـ النـفـسـ، وـيـنـطـوـيـ الـحـسـ عـلـىـ الـاعـتـرـافـ بـهـاـ، وـهـيـ مـوـاطـئـةـ لـلـطـبـاعـ، وـهـذـاـ مـاـ صـرـحـ بـهـ اـبـنـ جـنـيـ بـقـولـهـ: (وـلـسـتـ تـجـدـ شـيـئـاـ مـاـ عـلـلـ بـهـ الـقـوـمـ وـجـوـهـ الـإـعـرـابـ إـلـاـ وـالـنـفـسـ تـقـبـلـهـ، وـالـحـسـ مـنـطـوـ عـلـىـ الـاعـتـرـافـ بـهـ... فـجـمـيـعـ عـلـلـ الـنـحـوـ إـذـاـ مـوـاطـئـةـ لـلـطـبـاعـ)¹⁴ وـيـؤـيـدـ مـوـقـفـ هـؤـلـاءـ الـنـحـاءـ الـآخـذـينـ بـمـبـداـ التـعـلـيلـ الـمـرـتـبـ بـطـبـيـعـةـ الـلـغـةـ، عـلـمـ الـلـغـةـ الـحـدـيـثـ، وـخـصـوصـاـ الـعـلـلـ الـتـيـ تـقـومـ عـلـىـ الـخـفـةـ وـالـثـقـ، وـتـدـخـلـ فـيـ نـطـاقـ قـانـونـ الـاـقـتصـادـ الـلـغـويـ، كـمـاـ يـؤـيـدـ شـطـرـاـ مـنـهاـ عـلـمـ الـنـفـسـ الـتـجـريـبيـ؛ وـخـصـوصـاـ مـاـ يـقـومـ مـنـهاـ عـلـىـ مـرـتـبـةـ الـأـوـلـوـيـةـ فـيـ الـنـفـسـ، وـالـأـصـلـ وـالـفـرعـ وـأـحـقـيـةـ الـأـصـلـ بـالـتـقـدـمـ عـلـىـ الـفـرعـ¹⁵، كـمـاـ يـؤـيـدـ التـعـلـيلـ بـوـجـهـ خـاصـ أـصـحـابـ مـدـرـسـةـ

القواعد التحويلية، فيرونـه لـتعـمـيق الفـهـمـ وـيرـونـ حـرـمانـ الـبـحـثـ اللـغـويـ مـنـهـ مـحـابـةـ للـدـقـةـ عـلـىـ حـاسـبـ العـمـقـ فـيـ الفـهـمـ.

يتـبيـنـ مـاـ سـبـقـ أـنـ عـلـلـ الـأـولـ فـيـ النـحـوـ الـعـرـبـيـ مـنـ الـأـهـمـيـةـ بـمـكـانـ؛ـ لـأـنـهـ يـتـمـ بـمـوجـبـهاـ مـعـرـفـةـ الـمـرـفـعـ وـالـمـنـصـوبـ وـالـمـجـرـورـ وـالـمـبـنـيـ مـنـ كـلـامـ الـعـرـبـ وـالـاتـسـاعـ بـهـ،ـ وـهـيـ عـلـلـ بـسـيـطـةـ وـاضـحـةـ،ـ عـرـفـتـ فـيـ الـبـحـثـ النـحـوـيـ عـنـ الـعـرـبـ مـنـذـ عـهـدـ عـبـدـ اللهـ بنـ أـبـيـ إـسـحـاقـ الـحـضـرـمـيـ،ـ وـاسـتـمـرـتـ فـيـ أـبـحـاثـ النـحـاءـ،ـ وـكـثـرـتـ وـاتـسـعـ نـاطـقـهـاـ عـنـدـ نـضـجـ الـبـحـثـ اللـغـويـ عـنـ الـخـلـيلـ بنـ أـحـمـدـ الـفـراـهـيـدـيـ،ـ وـاـكـتمـلـتـ أـصـوـلـهـ وـفـرـوعـهـ فـيـ كـتـابـ سـيـبـوـيـهـ،ـ وـقـدـ أـصـابـهـاـ شـيـءـ مـنـ التـطـوـرـ نـتـيـجـةـ لـنـطـوـرـ الـحـرـكـةـ الـعـلـمـيـةـ عـنـ الـعـرـبـ بـمـظـهـرـهـاـ الـفـكـرـيـ وـالـدـينـيـ وـالـلـغـوـيـ وـالـأـدـبـيـ،ـ وـلـمـ يـنـتـجـ ذـلـكـ عـنـ تـأـثـرـ النـحـاءـ بـالـفـلـسـفـةـ أـوـ الـمـنـطـقـ الـيـونـانـيـيـنـ كـمـاـ يـزـعـمـ بـعـضـهـمـ،ـ وـالـعـلـلـ الـتـعـلـيمـيـةـ الـأـوـلـىـ بـأـنـوـاعـهـاـ الـنـحـوـيـةـ وـالـصـرـفـيـةـ وـالـصـوـتـيـةـ،ـ تـعـلـمـنـاـ كـلـامـ الـعـرـبـ وـطـرـائـقـهـمـ فـيـ الـنـطـقـ وـالـتـعـبـيرـ دـوـنـ أـنـ تـنـقـلـ كـاهـلـ الـنـحـوـ الـعـرـبـيـ بـشـيـءـ خـارـجـ عـنـ طـبـيـعـتـهـ-ـعـلـىـ عـكـسـ الـعـلـلـ الـثـوـانـيـ وـالـثـوـالـثـ-ـ وـلـذـلـكـ فـهـيـ عـلـلـ بـسـيـطـةـ يـمـكـنـ تـبـنيـهـاـ فـيـ صـنـعـ نـحـوـ مـيـسـرـ لـتـعـلـيمـ النـاشـئـةـ وـطـلـابـ الـعـلـمـ فـيـ مـدـارـسـنـاـ وـجـامـعـاتـنـاـ بـطـرـيـقـةـ خـالـيـةـ مـنـ التـعـقـيدـ وـالـجـدـلـ وـالـخـلـافـ،ـ تـجـعلـهـمـ يـقـدـمـونـ عـلـىـ درـاسـةـ الـنـحـوـ بـرـغـبـةـ وـانـدـفـاعـ،ـ وـنـكـونـ بـذـلـكـ قـدـ أـدـيـنـاـ خـدـمـةـ لـلـغـتـاـ وـأـبـنـائـنـاـ؛ـ كـمـاـ أـنـهـ لـاـ يـمـكـنـ التـخـلـيـ عـنـ هـذـاـ النـوـعـ مـنـ الـعـلـلـ؛ـ لـأـنـ التـخـلـيـ عـنـهـ يـعـنـيـ التـخـلـيـ عـنـ مـعـرـفـةـ كـلـامـ الـعـرـبـ وـمـعـرـفـةـ إـعـرـابـهـ وـضـبـطـهـ وـالـاتـسـاعـ فـيـ ذـلـكـ،ـ مـاـ يـسـاعـدـ عـلـىـ اـنـتـشـارـ الـكـلـامـ غـيـرـ الـمـعـرـبـ فـيـؤـديـ إـلـىـ اـنـتـشـارـ الـعـامـيـةـ فـيـ الـأـوـسـاطـ الـعـلـمـيـةـ،ـ وـهـذـاـ أـمـرـ مـازـالـ الـأـمـنـاءـ عـلـىـ هـذـهـ الـلـغـةـ بـيـذـلـونـ مـنـ ذـاتـ أـنـفـسـهـمـ أـلـبـعـ الـجـهـدـ لـمـنـعـ حـصـولـهـ.

إـنـ طـبـيـعـةـ الـقـيـاسـ نـجـدـهـ عـنـ الـمـتـكـلـمـ الـفـصـيـحـ،ـ الـذـيـ يـقـومـ بـهـ بـنـفـسـهـ عـفـوـيـاـ دـوـنـ قـصـدـ مـنـهـ أـوـ تـكـلـفـ؛ـ وـأـمـاـ الـنـحـوـيـ فـهـوـ الـذـيـ يـسـتـكـشـفـ تـلـكـ الـعـمـلـيـةـ الـتـيـ يـقـومـ بـهـ الـمـتـكـلـمـ نـفـسـهـ وـيـحـلـلـهـاـ مـثـلـمـاـ كـانـ يـقـومـ بـهـ اـبـنـ جـنـيـ،ـ حـيـنـ كـانـ يـسـأـلـ أـعـرـابـيـاـ فـصـيـحاـ

وهو أبو عبد الله الشّجـريـ، وبينـيـ أحـكامـهـ عـلـىـ أـجـوبـتـهـ، فـقـدـ وـرـدـ قـوـلـ ابنـ جـنـيـ: (وـسـأـلـتـهـ يـوـمـاـ، فـقـلـتـ لـهـ: كـيـفـ تـجـمـعـ دـكـانـاـ، فـقـالـ: دـكـاكـينـ قـلـتـ: فـسـرـحـانـاـ قـالـ: سـرـاحـينـ، قـلـتـ: فـقـرـطـانـاـ: قـالـ: قـرـاطـينـ قـلـتـ: فـعـثـامـانـاـ: قـالـ: عـثـمـانـونـ قـلـتـ لـهـ: هـلـاـ قـلـتـ عـثـامـينـ، قـالـ: إـيـشـعـثـامـينـ؟ أـرـأـيـتـ إـنـسـانـاـ يـتـكـلـمـ بـمـاـ لـيـسـ مـنـ لـغـتـهـ؟ وـالـلـهـ لـاـ أـقـولـهـ أـبـداـ)¹⁶ وـمـنـ هـنـاـ فـالـقـيـاسـ يـقـومـ بـهـ الـمـتـكـلـمـ أـوـلـاـ وـهـوـ مـنـ عـمـلـهـ، وـمـهـمـةـ الـنـحـوـيـ تـقـوـمـ عـلـىـ الـكـشـفـ وـسـبـرـ الـعـمـلـيـةـ الـذـهـنـيـةـ غـيـرـ الـمـقـصـودـةـ الـتـيـ دـارـتـ فـيـ ذـهـنـ الـمـتـكـلـمـ، وـبـهـذـاـ يـكـوـنـ الـإـسـتـبـاطـ وـالـتـعـلـيلـ أـرـكـانـ أـسـاسـ لـجـعـلـ عـلـمـيـةـ الـقـيـاسـ عـلـمـيـةـ صـحـيـحةـ.

لم يعتـدـ النـحـاءـ الـبـصـرـيـونـ بـمـاـ وـرـدـ خـطـأـ مـنـ كـلـامـ الـعـربـ؛ بـلـ بـرـرـوـهـ بـخـرـوجـ الـبـعـضـ عـلـىـ الـعـرـفـ الـقـانـونـيـ الـلـغـوـيـ وـالـإـنـدـاعـ وـرـاءـ الـطـبـعـ الـخـاصـ، وـمـنـ بـيـنـهـمـ أـبـوـ عـلـيـ الـفـارـسـيـ الـذـيـ عـلـلـ الـأـخـطـاءـ بـقـوـلـهـ: (إـنـمـاـ دـخـلـ هـذـاـ الـنـحـوـ كـلـامـهـ؛ لـأـنـهـ لـيـسـ لـهـمـ أـصـوـلـ يـرـاجـعـونـهـ وـلـاـ قـوـانـينـ يـسـتـعـصـمـونـ بـهـ، وـإـنـمـاـ تـهـجـمـ بـهـمـ طـبـاعـهـمـ عـلـىـ مـاـ يـنـطـقـونـ بـهـ، فـرـبـمـاـ اـسـتـهـواـهـ الشـيـءـ فـزـاغـوـاـ بـهـ عـنـ الـقـصـدـ)¹⁷. وـاقـتـصـرـ الـقـيـاسـ عـلـىـ مـاـ كـانـ مـطـرـدـاـ فـيـ الـقـيـاسـ وـالـإـسـتـعـمـالـ جـمـيعـاً؛ مـاـ مـاـ اـطـرـدـ فـيـ الـإـسـتـعـمـالـ وـشـدـّـ عـنـ الـقـيـاسـ (فـلـاـ يـتـخـذـ أـصـلـاـ يـقـاسـ عـلـيـهـ غـيـرـهـ)¹⁸ كـمـاـ أـكـدـ النـحـاءـ عـلـىـ أـهـمـيـةـ الـقـيـاسـ الـمـنـطـقـيـ فـيـ الـلـغـةـ، وـكـانـ مـيـزـانـاـ لـسـلـامـةـ الـعـلـاقـاتـ الـنـحـوـيـةـ فـحـافـظـواـ عـلـىـ حـجـتـهـ فـيـ الـنـحـوـ؛ لـأـنـهـ يـعـصـمـ الـقـانـونـ الـلـغـوـيـ عـنـ الـخـطـأـ، وـلـذـلـكـ قـالـ أـبـوـ عـلـيـ الـفـارـسـيـ: (أـخـطـئـ فـيـ خـمـسـيـنـ مـسـأـلـةـ فـيـ الـلـغـةـ، وـلـاـ أـخـطـئـ فـيـ وـاحـدـةـ مـنـ الـقـيـاسـ)¹⁹ لـأـنـ الـخـطـأـ فـيـ الـقـيـاسـ يـعـنـيـ الـخـطـأـ فـيـ الـتـفـكـيرـ الـمـنـطـقـيـ؛ وـلـأـنـ اـسـتـخـادـ الـفـكـرـ، وـمـعـايـيرـ الـقـيـاسـ الصـحـيـحةـ دـلـيـلـ عـلـىـ جـوـهـرـ الـعـلـاقـةـ بـيـنـ الـفـكـرـ وـالـلـغـةـ فـرـبـطـواـ إـدـرـاكـ الـعـلـاقـاتـ الـنـحـوـيـةـ السـلـيمـةـ بـالـإـدـرـاكـ الـعـقـليـ للـمـرـئـيـاتـ وـالـتـعـبـيرـ عـنـ عـلـاقـتهاـ. فـالـنـحـوـ الـبـصـرـيـ مـؤـسـسـ فـيـ قـوـاعـدـهـ وـقـوـانـينـهـ عـلـىـ مـنـطـقـ عـلـمـيـ سـاـعـدـ فـيـ تـحـصـيـنـ الـلـغـةـ بـنـحـوـ عـرـبـيـ يـعـصـمـ تـرـاـكـيـبـهاـ، مـهـماـ تـبـدـلـ الـأـفـاظـ فـيـ دـلـالـاتـهاـ، وـطـرـقـ

استخدامها؛ وذلك بتطبيق القياس في النحو، ولم يكتف البصريون بتوسيع أصول القياس في اللغة فحسب؛ بل بينوا الأحكام في تطبيقه والعلل التي أدت إلى استخدام الأصل نموذجاً يقاس عليه، فكان القياس؛ إماً معنوياً؛ وإماً لفظياً، فقالوا: (عاملٌ لفظي وعاملٌ معنوي)²⁰ ووضعوا نظرية العامل.

تكلّم النّحّاء البصريون على العلل وبرّوها، وعقد ابن جني أبواباً بحث فيها (تخصيص العلل، والفرق بين العلة الموجبة والعلة المجوزة، وتعارض العلل وعلة العلة وحكم المعلول بعلتين، والرد على من اعتقد فساد علل النحو)²¹ وقرن علماء البصرة نظرياتهم النحوية بالحجج والبراهين، لإثبات صحة آرائهم التي تعكس بصدق المنهج الذي كان سائداً في الجدل اللغوي العلمي الذي دار بينهم وبين نظرائهم الكوفيين. كما ميز النّحّاء البصريون بين الصّرف والنحو، وأكّد ابن جني على ضرورة تعلم الصّرف قبل النحو لارتباط النحو بأحوال التّصريف، يقول: (التصريف إنما هو لمعرفة أنفس الكلمة الثابتة والنحو إنما هو لمعرفة أحواله المتقلّلة... من الواجب على من أراد معرفة النحو أن يبدأ بمعرفة التّصريف؛ لأنّ معرفة ذات الشيء الثابتة ينبغي أن يكون أصلاً لمعرفة حاله المتقلّلة)²² ثم ميزوا بين النحو والإعراب، وجعلوا النحو الجانب النّظري، والإعراب الجانب التطبيقي الذي يفسّر النّظريات، ويبين العلاقات بين الأجزاء ونوعيتها، فكان النحو (انتفاء سمت كلام العرب من إعراب وغيره؛ كالتنّية والجمع والتحبير والتّكثير والإضافة والنّسب والتركيب وغير ذلك، ليتحقق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة فينطق بها وإن لم يكن منهم، وإن شدّ بعضهم عنها ردّ به إليها)²³ أما الإعراب في رأيه (فهو الإبانة عن المعاني بالألفاظ) أي الإفصاح عن منزلة اللّفظ في التركيب وما طرأ عليه من عوامل ومؤثرات أدت إلى تغيير في الإعراب بتغيير العلامة الدالة على المرتبة في عملية الإسناد، وما يتبعها من فضلات ليستقيم المعنى في التركيب. هذه الفرضيّة النحوية الإعرابيّة دفعت

البصريين إلى تعليل وتبرير الحركات الإعرابية، وربطها بمؤثر أوجدها لأن العقل – في رأيهما – لا يتصور وجودها من دون مؤثر، فقسموا الحركات إلى مراتب ترتبط بمرتبة الكلمة في التركيب، فوصفو المرفوعات بأنها تدل على القيمة والارتفاع وقالوا: (هي اللَّوازِمُ لِلْجَمْلَةِ وَالْعَدْمَةِ فِيهَا، وَالَّتِي لَا تَخْلُو مِنْهَا وَمَا عَدَاهَا فَضْلَةً، يَسْتَقْلُ الْكَلَامُ دُونَهَا)²⁵ وكان الفاعل أول المرفوعات لأنَّه صاحب الفعل وهو المقترن عليه، ولذلك قال الرَّمَانِي: (جَعَلَ الرَّفْعَ لِلْفَاعِلِ لِأَنَّهُ أَوَّلُ الْأَوَّلِ، وَذَلِكَ تَشَاكِلُ حَسْنٍ؛ وَلِأَنَّهُ أَحَقُّ بِالْحَرْكَةِ الْلُّغُوِيَّةِ؛ لِأَنَّهَا تَرَى بِضْمِ الشَّفَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ صَوْتٍ... فَأَعْطَى أَقْوَى الْحَرْكَاتِ)²⁶ وقسم ابن جني الحركات بحسب قوتها (المرفوع هو الأقوى والأثقل والمنصوبات هي الأضعف والأخف، والفاعل هو المتقدم، والمفعول هو المتأخر، والضمة أثقل الحركات وأقواها فكانت للأثقل والأقوى وهو المرفوع، وجعل الخفيف للأخف والأضعف وهو المنصوب)²⁷ وأعطوا الحركات تبريراً فيزيائياً منطقياً، فالعرب لا تبدأ بساكن، ولا تقف عند متحرك لأنَّ الحركة الفيزيائية تبدأ بفعل ميكانيكي، وليس بانعدام الحركة، ولا يمكن أن تتوقف الحركة الفيزيائية عن فعلها الديناميكي، وهي في حالة من إصدار صوت دالٌ على حركة وعند توقف الحركة الفيزيائية يحمل الصوت صدى دلالة الوقوف. فالحركة تشير في اللغة إلى فاعليتها بالحرف الذي تدفع به إلى الانقاء بغيره ليتم معنى التركيب ودلالته (لأنَّ الحركة تقلق الحرف عن موضعه ومستقره وتجذبه إلى جهة الحرف التي هي بعضه).²⁸

تأثر نحاء البصرة بالمنهج العلمي في تعريف اللغة، ووضع النظريات النحوية وجاءت نظرياتهم عن طريق الاستقراء الذي ساعدتهم مقوماته على وضع الفرضيات والكشف عن القضايا الأولية التي كانت أساساً في بنية اللغة، فأسسوا قوانينهم النحوية على مبادئ المنطق الرياضي؛ وقسموا عناصر اللغة في علم النحو إلى ثوابت ومتغيرات استبطوا بها بعملية الاستقراء اللغوي؛ فكانت الكلمة المؤلفة من

أحرف بنائية أول شكل من أشكال اللّغة التي لا يمكن البرهان عليها والتثبت من حقيقتها وجوهرها، فقبلها العالم النّحوي كما هي واعتبرها في أشكالها بدهيات انطلق منها للتحقّق من صحة تفاعಲها بعضها مع بعض في صياغة تعبيريّة لا تناقض بين أجزائها، ثم أرشه الاستقراء إلى تركيب الجملة من مسند ومسند إليه مهما تعددت نماذجها، فقبلت بنية الجملة العربيّة كقضايا أولية لا يقوم عليها برهان. كشف اتجاه علماء النحو البصريين العقلي عن أحوال الكلمة وخصائصها، فصالغ تعريفات ووضع قوانين بُنيت عليها نظريات اللّغة العربيّة. ثم تبيّن له أنّ بعض البدويّات أساس لاشتقاق الألفاظ في نظام لغويٍّ محدّد ل المؤدي دورها في ترتيب القضايا الأولية واتساقها فتأخذ أشكالاً مميزة ومتعددة مع محافظتها على الحدين الرئيسيين المسند والممسند إليه، وتكون بالتالي نماذج لا حصر لها من البناء النّسقي اللغوي إذ، كلما تغير أصل موضوع أو أكثر في نسق ما، فإن النظريات المشتقة – وبالتالي البناء اللغوي كله – لا بدّأن يتغيّر، ويعطينا نسقاً مخالفاً وجديداً، ومهما تعددت هذه الأساق؛ فإنّها تبقى خاضعة للنظام النّحوي الذي يعصّها عن الخل. ولاحظ النّحّاء أنّ تركيب القضايا الجديدة يتمّ بواسطة أدوات العطف أو أدوات النفي، أو أدوات الشرط... إلخ، فينشأ من جملتين بسيطتين جملة مركبة لا تناقض بين أجزائها، ولا يمكن أن تتضمن الفكرة ونقضها في آن واحد وتبقى مقبولة، فكانت هذه الأدوات الروابط المنطقية التي تساعد على فهم الفكرة وبالتالي قبولها. كما قام النّحو البصري على أساس نظرية الاستباط، فتوصل العلماء إلى نتائج من مقدمات؛ باستخدام روابط تساعد على الوصول إلى هذه النتائج.

- نظرية العامل: استقرّت فكرة العامل في الفكر النّحوي العربي منذ سيبويه ثم توسيّع النّحّاء فيها توسّعاً كبيراً، فتحدّثوا عن العامل اللغطي والعامل المعنوي

والعامل القوي والعامل الضعيف، وتقوم فكرة العامل على أساس التعبير عن العلاقات بين أجزاء التركيب، والترابط الموجود بين عناصر كل جملة، ولهذا تتألف الجملة من العامل والمعمول وعلاقة العمل الرابطة بينهما، أمّا العلامات الإعرابية بوصفها أثراً للتفاعل القائم بين العامل والمعمول، فالعامل هو الموجد للمعنى الوظيفية للكلمات، وحين يريد المتكلّم التعبير عن تلك الوظائف؛ فإنه يختار لها العلامة المناسبة في عُرْفِ اللّغة²⁹، ولذلك اهتم النّحّاة البصريون بالعامل، وبنوا عليه قواعدهم وأحكامهم.

ولعلّ أهم ما يسُوّغ للنّحّاة اهتمامهم بالعامل هو نزوع العربية إلى الشّكل أكثر من نزوعها للمعنى؛ حيث إنّ الإعراب يرتبط فيها بقرائن لفظية غالباً تسبّب في وقوعه، كما هو الحال في النّعت السّببي مثلاً، فنحن نقول: رأيت الرّجـلـ الـكـرـيمـةـ أمـهـ، فـتـبـعـ النـعـتـ ماـ قـبـلـهـ فـيـ حـرـكـةـ الإـعـرـابـ،ـ معـ أـنـهـ مـنـ حـيـثـ الـعـنـىـ يـرـتـبـ بـمـاـ بـعـدـهـ،ـ فـفـيـ هـذـهـ عـبـارـةـ لـاـ يـتـصـفـ الرـجـلـ بـالـكـرـمـ بـلـ أـمـهـ،ـ وـكـانـ مـنـ الـمـنـطـقـ أـنـ تـرـفـعـ كـلـمـةـ الـكـرـيمـةـ تـبـعـ لـمـنـعـوـتـهـ الـأـصـيـلـ؛ـ وـلـكـنـهـ نـصـبـتـ لـلـاتـبـاعـ الـلـفـظـيـ،ـ وـهـذـاـ يـعـنـيـ أـنـ الـعـلـاقـةـ الشـكـلـيـةـ هـيـ التـيـ سـبـبـتـ الإـعـرـابـ³⁰.ـ وـهـوـ شـأـنـ مـعـظـمـ التـرـاكـيـبـ مـعـ جـوـدـ بـعـضـ الـقـرـائـنـ الـمـعـنـوـيـةـ التـيـ قـدـ تـسـبـبـ الإـعـرـابـ عـلـىـ قـلـتـهـاـ كـالـابـدـاءـ وـالـمـضـارـعـةـ.

و عموماً فإنّ العوامل سواء أكانت لفظية أم معنوية، فهي ليست مؤثّرات حقيقة؛ بل قرائن تدلّ المتكلّم على نوع خاص من الإعراب، يقول ابن جنّي: (ولأجله ما كانت العوامل راجعة في الحقيقة إلى أنها معنوية، ألا تراك إذا قلت: ضرب سعيد جفراً، فإنّ ضرب لم تعمل في الحقيقة شيئاً، وهل تحصل من قولك: ضرب إلا على اللّفظ بالضاد والراء والباء على صورة فعل، فهذا هو الصوت والصوت مما لا يجوز أن يكون منسوباً إليه الفعل وإنما قال النّحويون: عامل لفظي، وعامل معنوي، ليروك أنّ بعض العمل يأتي مسبباً عن لفظ يصحبه كمررت بزيد، وليت

عمراً قائمٌ، وبعضه يأتي عارياً من مصاحبة لفظ يتعلّق به، كرفع المبتدأ بالابتداء ورفع الفعل لوقوعه موقع الاسم، هذا هو ظاهر الأمر، وعليه صفحة القول، فأمّا في الحقيقة ومحصول الحديث فالعمل من الرفع والنصب والجر والجزم إنما هو للمتكلّم نفسه لا لشيء غيره، وإنما قالوا: لفظيًّا ومعنويًّا لما ظهرت آثار فعل المتكلّم بمضامنة اللّفظ للّفظ، أو باشتمال المعنى على اللّفظ، وهذا واضح)³¹ غير أنّ النّحّاة في تطبيقاتهم نسوا أنّ العوامل ليست مؤثّرات حقيقة؛ بل قرائن فصاروا يتکلفون في تحليلاتهم فيجعلوننا نحسّ بأنّ هذا العامل كالقوّة المحسوسة تضعف تارة وتقوى أخرى، كما دفع بالمتأخّرين منهم إلى التحمل والتّعسّف في الدرس النحوّي؛ مما أدى إلى مهاجمة نظرية العامل والثورة عليها وعلى النحو البصري عموماً ثورات كثيرة أعنفها ثورة ابن مضاء القرطبي الأندلسي.

وخلالمة القول: إن النّحّاة البصريين أدركوا في وقت مبكر أنّ اللغة العربية علم عقلي، يقوم على فكري الثوابت والمتغيرات وقواعد اللغة مرتبطة بقوانين العقل، علينا أن نعود بلغتنا العربية إلى أصلاتها ونكشف عن جوهر المنهج العلمي الذي تأسست عليه وننطلق في دراستنا من هذه الأسس العلمية فتحقق غایتين رئيسيتين: أولاًهما العودة بالفكرة العربي النّحوي إلى أصلاته، وثانيتهما طرح قضايا النّحو بشكلٍ علمي، يزيل عنها عملية التقين التي أبعدت أبناء العربية على النّحو العربي فصارت نظرتهم إليها نظرة فوقية أو نظرة عداء؛ لأنّ الإنسان عدوًّا ما يجهل؛ فإذا انكشفت أمام الراغبين في دراسة اللغة العربية العلاقات المنطقية وفهموا المنهج الذي تأسست عليه، سهل التعبير بها، ذلك لأنّ الدراسة الموضوعية العلمية للنحو العربي ترشد الدارس إلى الأصول النحوية التي بنيت على التفسير والتعليق، وتعطيه صورة حقيقة عن المجهود الذي بذله علماؤنا الأوائل في جمع اللغة، وتقعدها على منهج علمي.

الهوامش :

- 1- علي أبو المكارم، *أصول التفكير النحوی*، ط1. بيروت: 1973، مطبع دار القلم، ص167.
- 2- أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي، *الإيضاح في علل النحو*، تج: مازن المبارك ط5. بيروت: 1986، دار النفائس، ص 64-65.
- 3- علي أبو المكارم، *أصول التفكير النحوی*، ص 189.
- 4- أبو بكر محمد بن السراج، *الأصول في النحو*، تج: عبد الحسين الفتلي، ط3. بيروت: 1988 مؤسسة الرسالة، ج1، ص 35.
- 5- أمجد طرابلسي، *نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب*، ط5. الرباط: 1986، دار قرطبة، ص 15.
- 6- سعد محمد الكردي، *النحو العربي بين الأصلية والتاثير*، ص 53.
- 7- علي النجدي ناصف، *سيبوبيه إمام النحاء*، ط1. مصر: 1953، مكتبة النهضة، ص 163-164.
- 8- حسن عون، *تطور الدرس النحوی*، ط1. القاهرة: 1980، معهد الدراسات العربية، ص 64.
- 9- علي أبو المكارم، *أصول التفكير النحوی*، ص 162.
- 10- أبو الفتح عثمان ابن جنى، *الخصائص*، تج: عبد الحميد الهنداوي، ط1. بيروت: 2001 دار الكتب العلمية، ج1، ص 249.
- 11- نفسه، ج1، ص 249-250.
- 12- أبو بشر عمرو بن عثمان بن قبر سيبويه، *الكتاب*، تج: عبد السلام محمد هارون، ط3. بيروت: 1988 دار الكتب العلمية، ج1، ص 32.
- 13- أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي، *الإيضاح في علل النحو*، تج: مازن المبارك ط5. بيروت: 1986، دار النفائس، ص 65/66.
- 14- ابن جنى، *الخصائص*، ج1، ص 51.
- 15- منى إلياس، *القياس في النحو*، ط1. دمشق: 1985، دار الفكر، ص 47-53.
- 16- ابن جنى، *الخصائص*، ج1، ص 242.
- 17- السيوطي، *المزهر*، ج2، ص 248.
- 18- ابن جنى، *الخصائص*، ج1، ص 99.
- 19- نفسه، ج2، ص 88.

- 20- نفسه، ج 3، ص 109.
- 21- نفسه، ج 3، ص 126-144.
- 22- نفسه، ج 2، ص 54.
- 23- نفسه، ج 1، ص 34.
- 24- السابق، ج 1، ص 35.
- 25- أبو البقاء يعيش بن علي بن يعيش، شرح المفصل، تتح: إميل بديع يعقوب ط 1. بيروت: 2001، دار الكتب العلمية، ج 1، ص 20.
- 26- "رسائل في اللغة والنحو" مجلة التراث العربي. السنة: 2006، ربیع الثاني 1427 هـ العدد 102، ص 50.
- 27- عبد الرحمن جلال الدين، همع الهوامش شرح جمع الجواجم في علم العربية، ط 1. لبنان: دار المعرفة، ج 1، ص 64.
- 28- ابن جني، سر صناعة الإعراب، تتح: مصطفى السقا وجماعة، ط 1. القاهرة: 1954، ج 1، ص 7-8.
- 29- محمد الواقفي، "نظريَّةُ النَّظمِ ونحوُ النَّصِ ونظريَّةُ العَاملِ" مقال منشور في الشابكة: www.aklaam.net. 2010-11-26.
- 30- محمد خـير الحلواني، أصول النـحو العربي، دـ. اللـاذقـية: 1979، مطبـعة الشـرقـ، ص 143.
- 31- ابن جني، الخصائص، ج 1، ص 109-110.

